﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِي سَمُومٖ وَحَمِيمٖ ﴿٤٢﴾ وَظِلّٖ مِّن يَحۡمُومٖ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٖ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾﴾ [الواقِعَة: 41 - 44]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

مقابلةُ نعيمِ أصحابِ اليمينِ بعذابِ أصحابِ الجحيم

لمّا فصَّلت الآيات السّابقة نعيمَ أصحابِ اليمين، وما أُفيضَ عليهم فيه من الظِّلالِ الوارفةِ، والفواكهِ الدّانيةِ، والشَّرابِ اللَّذيذِ، وما ذُكِرَ من لذّاتِ الأجسادِ وأنسِ الأرواحِ؛ ناسب الانتقالُ إلى بيانِ الصِّنفِ الثّالثِ من أصنافِ النّاسِ يومَ القيامةِ، وهم أصحابُ الشِّمالِ، على وجهٍ يُبرزُ به قِوامَ القسمةِ الثُّلاثيَّةِ الَّتي تقدَّمت في قولِه تعالى: ﴿وَكُنتُمۡ أَزۡوَٰجٗا ثَلَٰثَةٗ﴾، ثمَّ أعقَبَ ذلكَ بوصفِ ما أُعِدَّ لهم من العذابِ، فجاءَ ذلك في مقابلةٍ بديعةٍ لما ذُكِرَ لأهلِ الجنانِ من النَّعيمِ، فأُشيرَ إلى أنَّه بدلًا من الظِّلِّ الممدودِ، لهم ظلٌّ من يحموم، أي: دخانٍ أسودَ خانقٍ لا روحَ فيه ولا نفَس، وبدلًا من الماءِ المسكوبِ، لهم سمومٌ وحرورٌ، وبدلًا من البردِ والشرابِ اللَّذيذِ، حميمٌ يفورُ، وبدلًا من الكرامةِ والأنسِ، عذابٌ لا باردٌ ولا كريمٌ، أي: لا يُفضي إلى راحةٍ في البدنِ، ولا يلتقي فيه القلبُ برحمةٍ.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿سَمُومٖ﴾: (السَّمومُ) في أصل اللُّغة مأخوذٌ من السَّمِّ، وهو النّافذ القاتل، إلّا أنَّ العربَ خصّوا به الرّيحَ الحارَّةَ الَّتي تدخل في المسامِّ، وتتخلَّل الأجواف، لا سيَّما إذا كانت شديدة اللَّفح، لا تُرى، ولكن تُميت، قالوا: (ريحٌ سَمومٌ)؛ إذا كانت تقتل بنفْسها ولفحها دون أن تُشاهد نارُها، وهي ريحٌ يُقال: إنَّها تهبُّ في نصف النَّهار، في شدَّة القيظ، حارَّةٌ حَرَّ السَّمِّ، تدخل الجلد، وتنفذ إلى الأحشاء؛ ولهذا سُمّيت سَمومًا؛ لأنَّها تفعل فعلَ السُّمِّ في الجوف، وإن لم تكن مادَّةً محسوسةً[1].

(1) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (سم).

2) ﴿وَحَمِيمٍ﴾: جذر الكلمة هو (حمّ)، حُمَّ الأمرُ: قُضيَ، وقدَّروا احتَمَمتُ الأمرَ: اهتَمَمتُ، قال: كأنَّه من اهتمام بحَميم وقَريب، والحميم: الماء الحارُّ وتقول: أحَمَّني الأمرُ[1]، و(الحَميم) هو الماء المحمومُ، أي: الَّذي جاوز حدود السُّخونة إلى أقصى درجات الإيلام والاحتراق، والحَميمُ: هو الماء الشَّديد الحرارة الَّذي إذا قُرِّب من الجلدِ؛ سلقه، وإذا دخل الجوف؛ قطَّع الأمعاء تمزيقًا، ولهذا عرَّفوه في كتب التَّفسير بأنَّه: ما بلغ من الحرارة غايتَها، فيُصَبُّ على رؤوس أهل النّار، فيذيب وجوههم وجلودهم.

3) ﴿يَحْمُومٍ﴾: أسْودُ؛ أحمُّ ويحموم، وهو أحمُّ المُقْلَتَيْن، وحَمُمَ وَجْهُ الزّاني: سخم[2]، و(يَحموم): لَفظٌ مُعَرَّفٌ في كُتُبِ اللُّغَةِ بأنَّهُ الدُّخانُ الأسودُ الكَثيفُ، أو السَّوادُ الشَّديدُ القاتمُ، مَأخوذٌ مِنَ الجَذرِ (حمم)، الَّذي تَدورُ مَعانيهِ حَوْلَ السُّخونَةِ والاشتِعالِ والاحتِراقِ، فالحُممَةُ: ما بَقيَ مِنَ الجَمرِ؛ إذا خَمَدَ لَهيبُهُ، وبَقيَ رَمادُهُ الأسودُ، والحَميمُ: الماءُ الحارُّ، واليَحمومُ: الدُّخانُ الحالِكُ السَّواد، الَّذي تَرتَفِعُ مِنهُ الحَرارَةُ، ويَغيبُ فيهِ البَصرُ.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

تصويرُ الشَّقاءِ الأبـــــديِّ في مـآلِ أصحـابِ الشِّمالِ

جاءَت هذه الآياتُ في سياقِ التَّفصيلِ لمصيرِ الفريقِ الثّالثِ من أصنافِ الخلقِ يومَ القيامةِ، وقد صُدِّرتِ الآيةُ الأولى بأسلوبِ التَّفخيمِ التَّهويليِّ، في قولِهِ تعالى: ﴿مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ﴾، ثمَّ أُتبِعَ ذلكَ ببيانِ حالِهم في جهنَّمَ، فهُم في ريحٍ حارَّةٍ خانقةٍ تلفحُ الوجوهَ، وفي حميمٍ، وهو الماءُ الَّذي بلغَ غايةَ الغليانِ، يُسقى لهم عذابًا لا يُروى منهُ الظَّمأُ، بل يَزيدُ من شقاءِ البدنِ.

ثمَّ جاء التَّصويرُ بالمقابلةِ: ﴿وَظِلّٖ مِّن يَحۡمُومٖ﴾، وهو دخانٌ شديدُ

(1) الخليل، العين: (حمّ).
(2) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (حمّ).

السَّوادِ، من دخان جهنَّم، واليحموم: يفعول من الأحمِّ، وهو الأسود، والعرب تقول: أسود يحموم؛ إذا كان شديد السَّواد[1]، وقد خُتِمَ هذا التَّصويرُ الرَّهيبُ بقولهِ تعالى: ﴿لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ﴾، في نفيِ كلِّ ما يُرجى من الظِّلِّ عادةً، فلا هو باردٌ تُستلذُّ فيهِ الإقامةُ، ولا هو كريمٌ تُؤنسُ فيه النَّفسُ، بل هو ظلٌّ يجلو تمامَ الشَّقاءِ، ويُكملُ صورةَ العذابِ حسًّا ومعنًى.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نوع الواو ودلالتها:

عطفُ القصَّة على القصَّة في تغاير الحالين وبيان المآلين

(الواو) في قَولِهِ تعالى: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ﴾ هي واو عطف القصَّة على القصَّة، تُفيدُ الانتقالَ من مَشهَدٍ إلى مَشهَدٍ، ومن مَقامٍ إلى مَقامٍ، فالسّياقُ السّابقُ كانَ في مَعرِضِ الحَديثِ عن أصحابِ اليَمينِ وما أُعِدَّ لَهُم من نَعيمٍ مُقيمٍ، فجاءَ الانتقالُ إلى طائفَةٍ أُخرى، وهُم أصحابُ الشِّمالِ؛ ليَنتَقِلَ الأُسلوبُ من مَقامِ الوعد إلى مَقامِ الوعيد، ومِن صورَةِ النَّعيمِ إلى مَشهَدِ الجَحيمِ، والجهة الجامعة بينهم هي بيان مصير الفريقين، مع تغاير الحالين.

نكتة استعمال لفظ (أصحاب) دون (أهل):

ملازمةُ الشُّؤمِ السُّلوكيِّ يقودُ إلى المصيرِ المشؤوم في الآخرة

جاءَ التَّعبيرُ بلَفظِ (أصحاب) دونَ (أهل)، في قَولِهِ تعالى: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ﴾؛ تَعبيرًا عن المَعنى المَقصودِ بما يَليقُ بمَقامِ التَّهويلِ والتَّمييزِ بَينَ مَصيرِ الفَريقَينِ، فلفظُ (أصحاب) يُشعِرُ بالمُلازَمَةِ والمُقارَنَةِ القَريبةِ الَّتي تَتَضَمَّنُ نَوعًا مِنَ الارتِباطِ النَّفسيِّ أوِ السُّلوكيِّ، فهؤلاءِ القَوم اقتَرَنوا بالشِّمالِ اقترانًا ذاتيًّا، حَتّى صاروا (أصحابًا) لَهُ، لا مِن حَيثُ الجهةُ فحَسب، بَل مِن حَيثُ المقامُ والمصيرُ، وهو ما يَدُلُّ على أنَّهُم لَم يَكونوا مُجَرَّدَ

(1) الواحديّ، الوسيط: 4/ 236.

ساكِنينَ في جِهَةِ الهَلاكِ، بَل كانوا على صِفَةٍ استَحَقّوا بها أن يَكونوا مِن أصحابِها، وفي هذا التَّعبيرِ إشعارٌ بأنَّ اقترانَهُم بالشِّمالِ لَم يَكُن قَسرًا بَل نَتيجَةً لاختيارِهِم وسُلوكِهِم، فهوَ اقترانٌ مُكتَسَب، لا عارِض.

دلالة العدول عن لفظِ (المشأمة) إلى ﴿ٱلشِّمَالِ﴾:

العدولُ عن ذكرِ عِلَّة العذابِ في الأولى إلى بيان اتِّجاه العذاب في الأخرى

عدل النَّظم الكريم عن لفظ (المشأمة) الوارد في بداية السّورة، إلى لفظ ﴿ٱلشِّمَالِ﴾، في قَوله تعالى: ﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ﴾، وذلك أنَّ (المَشأمَة) مَصدَرٌ يَدُلُّ على الشُّؤم، فهيَ جِهَةٌ مَقرونَةٌ بسوءِ المَآلِ، وجاءَت في مَقام التَّعدادِ الإجماليِّ لأصنافِ النّاسِ في الآخرة: (السّابقونَ، وأصحابُ اليَمين، وأصحابُ المَشأمَة)، فجاءَ استِعمالُ اللَّفظِ المُشتَقِّ من الشُّؤم؛ ليُناسِبَ المَقامَ الكاشِفَ عن الهويَّةِ العامَّةِ لِكُلِّ فريقٍ، فلفظ (المشأمة) يُشير إلى علَّة المصير، ولفظ ﴿ٱلشِّمَالِ﴾ يُعيِّن اتِّجاه المصير، فهو لِلدَّلالَةِ على الجانِبِ المَكانيِّ المَحض، فالمَقصود هو تَحقيقُ المُقابَلَةِ الحِسّيَّةِ والذِّهنيَّةِ بَينَ ﴿ٱلۡيَمِينِ﴾ و﴿ٱلشِّمَالِ﴾، كما يُقابَلُ المَوقِعُ بالاتِّجاهِ، والكَفُّ بالكَفِّ؛ لِتَكتَمِلَ صورَةُ المُفارَقَة: فالَّذينَ كانوا أصحابَ اليَمينِ جَعَلَ اللّٰهُ لَهُم فُرُشًا مَرفوعَةً ونَعيمًا مُقيمًا، وأمَّا أصحابُ الشِّمالِ؛ فهُم في سَمومٍ وحَميم، وكَأنَّهُم قُبِضوا بكَفِّ الشِّمالِ، فأُلقيَ بهِم في النّار[1].

دلالة التَّعريف بالإضافة:

(أصحابُ الشِّمال) هويَّةٌ متحقِّقةٌ في بداياتها المشؤومة ومصيرِها المهول

قوله تعالى: ﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ﴾ تَركيبٌ إضافيٌّ عُرِّفَ فيهِ كِلا الطَّرفَينِ: (أصحاب) بالإضافَةِ إلى ﴿ٱلشِّمَالِ﴾، وهو تَعريفٌ مُزدوَجٌ يُنتِجُ دلالَةً مُنطبِعَةً في الذِّهنِ، لا تَترُكُ لِلمُخاطَبِ مَجالًا لِلغُموضِ أوِ التَّأويلِ، بَل تُحَدِّدُ المَقصودَ تَحديدًا قاطِعًا، وقَد جاءَ هذا التَّعريفُ؛ لِيُشعِرَ بأنَّ الحَديثَ لَيسَ عن طائِفَةٍ عارِضَةٍ أو مَجهولَةٍ، بَل عن فِئَةٍ مَعروفَةٍ، لَها صِفَةٌ مُلازِمَةٌ ومَقامٌ مُستَقِرٌّ، فهُم أصحابُ (جِهَةٍ)

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 389.

مَخصوصَةٍ، لا يَنتَسِبونَ إلَيها على وجهِ المَجازِ أوِ الظَّرفيَّةِ العابِرَةِ، بَل على وجهِ التَّحَقُّقِ والاستِحقاقِ.

فَفي التَّعبيرِ بـ(أصحابِ الشِّمال)، لا يُرادُ مُجرَّدَ التَّحديدِ المَكانيِّ أوِ الاتِّجاهيِّ، وإنَّما يُرادُ مِنهُ الإلصاقُ الوُجوديُّ والسُّلوكيُّ، أي: إنَّهم صاروا مِن ﴿ٱلشِّمَالِ﴾ بمَنزِلَةٍ لا تَنفَصِل، كَأنَّ ﴿ٱلشِّمَالِ﴾ قد صارَ هويَّةً مَعنويَّةً لَهُم، أو صورَةً تَعبيريَّةً عن حالِهِم في الميزانِ الإلهيِّ، فالتَّعريفُ بالإضافَةِ في هذا المَوضعِ يُفيدُ القَصرَ المَعنويَّ، أي: إنَّ هؤلاءِ هُمُ المُختَصّونَ بالشِّمالِ المَختومِ بالخُسرانِ، ولَيسَ ثَمَّةَ غَيرُهُم مِمَّن يَنطَبِقُ عَلَيهِ هذا المَصيرُ.

نكتة استعمال أداة ﴿مَآ﴾ مع العقلاء:

دلالَةُ الاستِفهامِ التَّحقيريِّ في مَقامِ التَّهويلِ القُرآنيِّ

أداة ﴿مَآ﴾ في قَولِهِ تعالى: ﴿مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ﴾ استِفهاميَّةٌ، وهيَ تُستعمَل في الأصلِ لِغيرِ العاقِلِ، فهي "تَقَعُ ما على ذَواتِ ما لا يَعقِلُ، وعلى صِفاتِ مَن يَعقِل"[1]، وهذا ما يُثيرُ في الذِّهنِ سُؤالًا بَلاغيًّا: لِمَ عَدَلَ البَيانُ الإلهيُّ عن استِعمالِ (مَن) الَّتي هي الأشهَرُ في الإشارَةِ إلى العُقلاءِ، إلى ﴿مَآ﴾ الَّتي تَقَعُ في مَوضِعِ الاستِفهامِ عن غيرِهِم؟ والجَوابُ: أنَّ هذا الاستِعمالَ جاءَ لأداءِ غَرَضٍ بَلاغيٍّ مَقصودٍ، لَهُ أثَرٌ في التَّقريعِ النَّفسيِّ، والتَّغريبِ الشُّعوريِّ، فأداةُ الاستِفهامِ (ما) تُستَخدَمُ حينَ يُرادُ التَّعجيبُ مِنَ الشَّأنِ، لا مِنَ الذّاتِ، أو حينَ يُرادُ الإزراءُ بالمَذكورِ، والتَّنكيرُ مِن حالِهِ ومَقامِهِ، كما يُقال: (ما هذا؟) حينَ لا يُرى في الشَّيءِ ما يَستَحِقُّ أن يُعَدَّ مِن جِنسِهِ المُعتادِ، فكانَ استِعمالُ ﴿مَآ﴾ هُنا لا لِكونِهِم غيرَ عُقلاءَ في ذَواتِهِم، بَل لأنَّ حالَهُم ومآلَهُم قد أخرَجَهُم عن مُقتَضَياتِ العَقلِ، وأسقَطَهُم مِن مَراتِبِ الإنسانيَّةِ المُهتَديَةِ، الَّتي بها يُشارُ إليهِم بـ(مَن)، فصاروا مَوصوفينَ بحالَةٍ مِنَ الانحِطاطِ والتَّردّي لا يُعبَّرُ عَنها إلّا بأداةٍ تُستَعمَلُ للمُتَعَجَّبِ مِن شَأنِهِ.

(1) السّامرّائيّ، معاني النّحو: 1/ 120.

بلاغة الاستفهام وغرضه:

الاستفهام في قوله تعالى: ﴿مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ﴾؛ ليُضخِّمَ مِن شَأنِ أصحابِ الشِّمال، ويُعظِّمَ مِن فداحَةِ حالِهِم، ويُشعِرَ بأنَّ أمرَهُم مِنَ الهَولِ بحَيثُ لا يُحيطُ بهِ وصفٌ، ولا يَسَعُهُ بَيانٌ، وهذا الأُسلوبُ لَهُ نَظائِرُهُ في القُرآنِ الكَريم، كما في قَولِهِ تعالى: ﴿ٱلۡحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلۡحَآقَّةُ ۝٢﴾ [الحاقة: 1 - 2]، و﴿ٱلۡقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلۡقَارِعَةُ ۝٢﴾ [القارعة: 1 - 2]؛ إذ يُؤتى بالاسمِ المُعادِ مَتبوعًا بأداةِ الاستفهام؛ ليُستدرَكَ المَعنى في ذِهنِ السّامِعِ لا بطَلَبِ الجَوابِ، بَل بتَهيئَةِ الذِّهنِ لِما سَيأتي مِن تَوصيفٍ مُذهِلٍ، يَحمِلُ على الخَوفِ أو الإعظامِ أو الفَزَعِ.

التَّهويلُ من واقِعِ أصحابِ الشِّمال والتَّشويقِ لما سيأتي في المقام

وَعَلى هذا، فإنَّ الغَرَضَ البَلاغيَّ مِنَ الاستفهامِ في الآيةِ هو التَّهويلُ؛ إذ يُلقي على السّامِعِ ظِلًّا كَثيفًا مِنَ الرَّهبةِ، كَأنَّما قيل: (تَأهَّب لِما سَيُقالُ، فإنَّ ما سَتَسمَعُهُ ليس هَيِّنًا)، والتَّفخيمُ مِن شَأنِ العَذابِ، لا تَعظيمًا لِأصحابِهِ، بَل تَهويلًا مِن مَآلِهِم، فكَأنَّهُم بَلَغوا مِنَ الشَّناعَةِ ما صارَ يُسألُ عَنهُم باستفهامٍ يَدُلُّ على الفَجيعَةِ: (أيُّ حالٍ لَهُم؟ وأيُّ مَصيرٍ؟)، والتَّحفيزُ الذِّهنيُّ: ليُبقي ذِهنَ المُتلقّي مَشدودًا إلى المَشهَدِ القادِمِ، فيَتَلَقّى وصفَ السَّمومِ والحَميمِ والظِّلِّ مِنَ اليَحمومِ بكامِلِ التَّوجُّهِ والانفعالِ.

بلاغة مجيء ﴿مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ﴾ خبرًا:

في قوله تعالى: ﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ﴾، يَتَجلّى نَسَقٌ تَعبيريٌّ بَليغٌ، يَقومُ على ما يُعرَفُ في عِلمِ البَلاغَةِ بالخَبَرِ الَّذي يُرادُ به الإنشاءُ، وهو مِن أساليبِ التَّوجيهِ البَلاغيِّ العاليَةِ؛ إذ يَأتي التَّركيبُ النَّحويُّ في صورَةِ الجُملَةِ الاسميَّةِ، والمَقصود مِنهُ لَيسَ مُجرَّدَ الإخبارِ، بَل إثارةُ الانفعالِ، والتَّعجيبُ، والتَّهويلُ.

للأخبارِ أغراضٌ تُصاغ بأساليب الإنشاء؛ لتجمع بين الفائدة والمقصد

فَقَد جاءَ قَولُه: ﴿مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ﴾ في مَوضِعِ الخَبَرِ، بَعدَ المُبتَدأِ المُعادِ ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ﴾، ولَيسَ المُرادُ أن يُخبَرَ عَنهُم خَبَرًا

مَعرِفيًّا، بَل أن يُصاغَ الأُسلوبُ في صورَةٍ تَقريريَّةٍ ظاهِرَةٍ، وإنشائيَّةٍ باطِنَةٍ، يَكونُ فيها ظاهِرُ التَّركيبِ تَقريرًا، وباطِنُهُ إنكارًا أو تَهويلًا أو تَعظيمًا، وهذا اللَّونُ مِنَ التَّعبيرِ يُلبِسُ العِبارَةَ الواضِحَةَ ثَوبًا مِنَ الإثارةِ الشُّعوريَّةِ، فتَغدو الكَلِمَةُ ذاتُها مَوقِفًا نَفسيًّا.

نكتة حذف المسند إليه في قوله: ﴿فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ﴾:

تهويلُ مصير المجرمين وتبشيع صورةِ العذابِ بمباغتةٍ لفظيَّة توجز المطلوب

حُذِف المسندُ إليه في قَولِهِ تعالى: ﴿فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ﴾، والتَّقدير: (هُم في سَموم وحَميم)؛ حَذفًا مَقصودًا يُرادُ بِهِ تَعميقُ أثَرِ المُفاجَأةِ وتَصعيدُ التَّهويلِ؛ إذ يُلقى بالسّامِعِ مِن جُملَةِ التَّعجيبِ إلى مَشهَدِ العَذابِ دَفعَةً واحِدَةً مِن غَيرِ واسِطَةٍ لَفظيَّةٍ، فيَنهالُ عَلَيهِ الوَصفُ انهِمالًا مُباشِرًا، فيَتَمَلَّكُ الحِسَّ قَبلَ أن يُمكِّنَ العَقلَ مِن تَرتيبِ المَعنى، وهذا أوَّلُ وُجوهِ الفَزَعِ، كما أنَّ حَذفَ المُسنَدِ إلَيهِ يوحي بأنَّ هويَّةَ أصحابِ الشِّمالِ قد انطَمَسَت في أُتونِ العَذابِ، فلَم يَبقَ لَهُم مِن كيانٍ إلّا ما صاروا فيهِ، فكَأنَّهُم ذابوا في السَّمومِ والحَميمِ حَتّى لَم تَعُد تُميِّزُ ذَواتُهُم مِن مَصيرِهِم، وهذا أبلَغُ في التَّصويرِ وأشَدُّ في النِّكايةِ.

بلاغة استعمال حرف الظَّرفيَّة:

تَصويرُ الاستِغراقِ الحِسّيِّ والاختِناقِ الوُجوديِّ

آثَرَ النَّظمُ الكريمُ استعمالَ حرفِ الظَّرفيَّةِ، في قَولِهِ تعالى: ﴿فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ﴾؛ ليدلَّ على إحاطَةِ العَذابِ بأصحابِهِ مِن كُلِّ جانِبٍ، لا على مُجرَّدِ وُقوعِهِ؛ لأنَّ حرفَ الظَّرفيَّةِ يَدُلُّ على الإحاطَةِ، وهيَ لِلوِعاءِ[1]، وهيَ عِبارَةٌ تُصوِّرُهُم غارِقينَ مُحاطينَ مَغمورينَ بالعَذابِ، كما يُحاطُ الشَّيءُ بالمَكانِ الَّذي يُغشيهِ مِن فوقِهِ وتَحتِهِ وعن يَمينِهِ وشِمالِهِ، وهذا التَّصويرُ بالظَّرفيَّةِ المَكانيَّةِ يَقتَضي المُلازَمَةَ والاستِغراقَ، لا المُرورَ أو التَّجاوُزَ، وكَأنَّ السَّمومَ والحَميمَ أصبَحا لَهُم كالهَواءِ لِلحَيِّ، لا يُفارِق، أو كالبَيتِ الَّذي لا يُغادَر.

(1) سيبويه، الكتاب: 2/ 308، والمُبرِّد، المقتضب: 4/ 139.

فهُم في مزيجٍ حارقٍ من السَّموم الَّتي هي ريحٌ شَديدةُ الحَرِّ، والحَميم الَّذي هو ماءٌ بالِغُ الحَرارَة، فالجَمعُ بَينَهُما في ظَرفٍ واحِدٍ يَزيدُ مِن شِدَّةِ الصّورَة، فإذا أُضيفَ إلى ذلكَ أنَّ أصحابَ العَذابِ في هذا المَزيجِ، اتَّضَحَ أنَّهُم لَيسوا مُجرَّدَ مُتألِّمينَ، بَل ساكِنينَ فيهِ، لا مَفَرَّ لَهُم مِنهُ، ويحسن مع ذلك التَّقابل مع أصحابِ اليَمين: ﴿فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ﴾، فكما أنَّ أولئِكَ في نَعيمٍ مُقيمٍ أحاطَ بهِم، وأقاموا فيهِ، فهؤلاءِ في عَذابٍ مُقيمٍ لا يَنفَكّونَ عنهُ.

توجيهُ تخصيص السَّموم والحميم بالذِّكر:

بَلاغَةُ التَّضادِّ المُؤتَلِف بين العذابِ الهوائيِّ والمائيِّ

خصَّ النَّظم الكريم السَّمومَ والحميم بالذِّكر، في قَولِهِ تعالى: ﴿فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ﴾ دونَ غَيرِهما مِن صُنوفِ العَذاب، ذلك أنَّ السَّموم هي الرّيحُ الشَّديدُ الحَرارَةِ الَّذي لا بَلَلَ مَعَهُ، وكَأنَّهُ مَأخوذٌ مِنَ السُّمِّ، وهو ما يُهلِكُ؛ إذ لاقى البَدَنَ، والحَميمُ: الماءُ الشَّديدُ الحَرارَةِ[1]، فجمع اللَّفظان العذاب المائيَّ والهوائيَّ، وهو أكثر اتِّساقًا مع حرف الظَّرفيَّة، وأشدُّ تناسبًا مع المهاد التَّهويليِّ؛ وذلك ليَدُلَّ على أقصى ما تَبلُغُهُ قوَى العَذابِ الحِسّيِّ مِن فتكٍ وقَسوَةٍ، فاجتَمَع السَّمومُ والحميم تَمثيلًا لِأقسَى طَرَفَي الإحاطَةِ الحَراريَّة: الرّيحِ المُحرِقَةِ مِنَ الخارِجِ، والماءِ المَغليِّ مِنَ الدّاخِل.

فائدة ازدواج مفردتَي: ﴿سَمُومٍ وَحَمِيمٍ﴾:

قوله تعالى: ﴿فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ﴾ يظهر فيه ازدواج المفردتين ويدلّ على أنَّ العذاب أُحكم على وجهيه: من جهة ما يُنفَذ إلى الداخل ﴿سَمُومٍ﴾، ومن جهة ما يُغرق الجسد إحاطةً ﴿حَمِيمٍ﴾ (حميم)؛ ليتجلّى الهلاكُ في صورتيه: الخفيَّة والظّاهرة.

العذاب الهوائيُّ أوَّل ما يُلامس الإنسان يتلوه العذاب المائيُّ

نكتة تقديم السَّموم على الحميم:

قُدِّم ذكر السَّموم على الحميم في قَولِهِ تعالى: ﴿فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ﴾

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 304.

باعتبارِ مبدئيَّة المحسوسِ به، فبُدِئَ أوَّلًا بالسَّموم، وهوَ الرّيحُ الحارَّةُ النّافِذَةُ في الجلدِ، المُؤلِمَةُ بطَبعِها مِن أوَّلِ مَسِّها، تَأتي أوَّلَ ما يواجِهُ الإنسانَ في العَذابِ؛ لأنَّها تَطرُقُ سَطحَ الجَسَدِ فورًا، وتُلقي عَلَيهِ ظِلالَ الهَلاكِ قَبلَ أن يَمسَّهُ أيُّ عَذابٍ داخِليٍّ، وكَأنَّها تُمثِّلُ المَرحَلَةَ الأولى مِن الإحاطَةِ: إحاطَةِ الجَوِّ، والجَوُّ هوَ أوَّلُ ما يُدرَكُ بالحِسِّ، وأمّا الحَميمُ، وهوَ الماءُ المَغليُّ، فلا يُصيبُ الجَسَدَ إلّا بَعدَ أن يَغشاهُ، ويَتَوَغَّلَ فيهِ، فهوَ عَذابٌ يَتلو الرّيحَ في التَّرتيبِ الحِسّيِّ؛ إذ يَكونُ أثَرُهُ مِن داخِلِ الجَسَدِ لا مِن ظاهِرِهِ، فناسَبَ أن يُقدَّمَ العَذابُ الَّذي يُباشِرُ الحِسَّ ظاهِرًا، ثُمَّ يُعقِبُهُ ما يُباشِرُهُ باطِنًا.

غرض تنكير لفظي ﴿سَمُومٍ وَحَمِيمٍ﴾:

جاءَ تَنكيرُ لَفظَي ﴿سَمُومٍ وَحَمِيمٍ﴾؛ لِتَحقيقِ غَرَضٍ بَلاغيٍّ أصيلٍ هوَ تَعظيمُ العَذابِ وتَهويلُ أمرِهِ[1]، فالسَّمومُ والحَميمُ حينَ يُذكَرانِ نَكرتَينِ لا يُرادُ بهما مُجرَّدَ التَّنويعِ، بَل الإيحاءُ بأنَّ ما يُقاسونَهُ مِن حَرِّ الرّيحِ وغَلَيانِ السّائِلِ لَيسَ شَيئًا مَعهودًا ولا مَعروفًا، بَل هوَ عَذابٌ غَريبُ النَّوعِ، مُروِّعُ الوَصفِ، لا يُدرَكُ بالحِسِّ، ولا يُحيطُ بهِ الخَيالُ، فهوَ مُطلَقٌ في شِدَّتِهِ، مَتروكٌ لِلذِّهنِ كَي يَتَخَيَّلَهُ على أبشَعِ صورَةٍ.

تهويلُ العذابِ في جهنَّم آتٍ من هولِها وإبهام حقيقتِها على التَّحقيق

كما أنَّ التَّنكيرَ يُفيدُ التَّكثيرَ والتَّنَوُّعَ، أي: إنَّ السَّمومَ لَيسَت ريحًا واحِدَةً، والحَميمَ لَيسَ ماءً واحِدًا، بَل هيَ ضُروبٌ مُتعدِّدَةٌ مِنَ العَذابِ، تَتَقَلَّبُ عَلَيهِم، وتَتَجَدَّدُ، مِمّا يَزيدُ مِن شِدَّةِ المَشهَدِ وقَسوَتِهِ، والكثرة آتيةٌ ممّا يُفيدُه التَّنكيرُ من إبهامٍ، ويوهِمُ أنَّ العَذابَ لَيسَ في صورَةٍ واحِدَةٍ مَكرورَةٍ، بَل في صوَرٍ مُتَتابِعَةٍ لا تَمنَحُهُم سُكونًا ولا مَهرَبًا.

(1) السّامرّائيّ، معاني النّحو، ص: 37.

بلاغة التَّناسب في ذكر مفردة (ظِلّ):

قَـلـبُ الـتَّـوقُّـعِ وإحكامُ مَشهَدِ العَذابِ

آثر النَّظم الكريم استعمال مفردة (ظِلّ)، في قَولِه تعالى: ﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ﴾؛ لِغَرَضٍ بَلاغيٍّ دَقيقٍ يُعزِّزُ مَشهَدَ الهَولِ، فالظِّلُّ في المُتَعارَفِ مَأوًى مِنَ الحَرِّ ومَلجَأٌ مِنَ الشِّدَّةِ، فذِكرُهُ في هذا السِّياقِ - لا سيَّما بَعدَ السَّمومِ - يُعطي السّامِعَ بادِئَ الأمرِ فسحةً من الأملِ بوُجودِ منفَسٍ، ثُمَّ يُفاجَأُ بأنَّهُ ظِلٌّ مِن يَحموم، أي: مِن دُخانٍ أسوَدَ خانِقٍ شَديدِ السَّوادِ والحَرارَةِ، فيَتَحوَّلُ الظِّلُّ مِن رَمزٍ لِلرّاحَةِ إلى صورَةٍ من صوَرِ العَذابِ، وذلكَ مِنَ التَّهويلِ الَّذي ينكفئُ فيهِ التَّوقُّعُ على وجهِهِ.

غرض تنكير لفظ (ظِلّ):

ظـلالُ الـنّـار مهولةٌ في شكلِها وأثرِها وعظيم عذابها

جاءَ لفظُ (ظِلّ) نَكِرَةً؛ لإفادَةِ التَّهويلِ والتَّفخيم، فهوَ ظِلٌّ عَظيمُ الشَّأنِ في فظاعَتِهِ، غَيرُ مَعهودٍ في صِفَتِهِ، لا يُشبِهُ ظِلالَ الدُّنيا، كما أنَّ التَّنكيرَ يوحي بأنَّهُم وقَعوا في ظِلٍّ لا يُعَدُّ، ولا يوصَفُ، لا يُقاسُ بظِلٍّ آخَرَ، ولا يُرجى مِنهُ خَفضٌ ولا سَكينَةٌ، بَل هوَ ظِلٌّ خالِصٌ مِن جِنسِ العَذابِ، مَأخوذٌ مِن (اليَحموم) لا مِن الغَمامِ.

غرض إفراد لفظ (ظِلّ):

الـظِّـلُّ الـواحـد يُحكمُ ما يُحيطُ به، ويُعـذِّبُ ما دونه

أُفرِد لفظُ (ظِلّ)؛ لإفادَةِ العُمومِ المُحيطِ، أي: إنَّهم في ظِلٍّ واحِدٍ شامِلٍ، لا فراغَ فيهِ، ولا تَنفيسَ، ولا مَوضِعَ لِلهُروبِ، فهوَ كالسَّقفِ الجاثِمِ على رُؤوسِهِم، أشَدُّ عَلَيهِم مِن لَفحِ الشَّمسِ نَفسِها، وهذا أبلَغُ في الإيحاءِ بشِدَّةِ المَأزِقِ وكَمالِ الإحاطَةِ بالعَذابِ، فاجتَمَعَ في هذا التَّركيبِ: الإفرادُ لِتَصويرِ الإطباقِ واللّامَهرَبِ، والتَّنكيرُ لِتَضخيمِ الفَجيعَةِ وغَرابَةِ المَوصوفِ، على نَحوٍ يَجعَلُ (الظِّلَّ) نَفسَهُ مَوضِعًا مِن مَواضِعِ النِّقمَةِ، لا الرَّحمَةِ، ويَستَكمِلُ بِهِ القُرآنُ مَشهَدًا مُحكَمًا مِن الإغلاقِ التّامِّ على أصحابِ الشِّمالِ، فلا ريحٌ تُنعِشُ، ولا ماءٌ يُبرِّدُ، ولا ظِلٌّ يُؤنِسُ، بَل كُلُّ ما حَولَهُم عَذابٌ، وما ظَنّوهُ خِفَّةً إذا بِهِ شِدَّةٌ، وما رَجَوهُ مَأوًى؛ فإذا هوَ مَأتَمٌ.

نوع ﴿مِّن﴾ وفائدتها:

قلبُ الأوهامِ الآتيةِ من الاغترار بالرَّحمة الإلهيَّة ودفع مظنَّة التَّخفيف بضدِّه

حرف ﴿مِّن﴾ في قَولِه تعالى: ﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ﴾ للبيان، يدُلُّ على بَيانِ جنسِ الظِّلِّ؛ إذِ الظِّلُّ هُنا أُريدَ به نَفسُ اليَحموم، أي: الدُّخانُ الأسودُ البَهيمُ[1]، فهيَ لَيسَت للتَّبعيض ولا للابتداء، بَل لِبَيانِ حَقيقَةِ ما مِنهُ تَكَوَّنَ هذا الظِّلُّ، أي: إنَّ الظِّلَّ لَيسَ مِن غَمامٍ أو شَجَرٍ أو ماءٍ، كما يُعهَدُ في مَظانِّ الرّاحَةِ، بَل هوَ مِن ﴿يَحْمُومٍ﴾، أي: مِن دُخانٍ شَديدِ السَّوادِ، مُتَراكِمٍ قاتِمٍ، وهوَ أدنَى ما يَكونُ إلى النّارِ في حَرارَتِه، وأقرَبُ ما يَكونُ إلى الخَنقِ في أثَرِه، فـ﴿مِّن﴾ تَكشِفُ مَعدِنَ الظِّلِّ وحَقيقَتَهُ، وتَنسِفُ التَّوَهُّمَ بأنَّهُ ظِلٌّ يَبعَثُ على البُرودَةِ أوِ السَّكينَةِ، الآتي من الاغترارِ بالرَّحمةِ الإلهيَّة، وهذا الأُسلوبُ في استِعمالِ ﴿مِّن﴾؛ لِتَفصيلِ ما يُظَنُّ فيهِ التَّخفيفُ، ثُمَّ كَشفِهِ على ضِدِّهِ، يُحدِثُ في النَّفسِ أثَرَ الخَيبَةِ، فيُضاعِفُ الهَولَ.

بلاغة استعمال المفردة الفريدة ﴿يَحْمُومٍ﴾ مادَّة وصيغة:

اتِّساقُ وحشة الألفاظ مع وحشة المعاني المتعلِّقة بالدُّخان الأسود المظلم

اليَحموم دُخانٌ أسوَد على وزنِ (يَفعول)، وهو مُشتَقٌّ مِن الحُمَم بوزنِ صُرَدٍ اسمٍ لِلفَحم، والحُمَمَةُ: الفَحمَةُ، جاءَت زِنَةُ (يَفعول) فيهِ اسمًا مَلحوظًا فيهِ هذا الاشتقاقُ، ولَيسَ ينقاسُ[2]، واليحموم هو ظلٌّ من دخان جهنَّم أسود[3] بهيم[4].

وجاءَ استِعمالُ مُفرَدَةِ ﴿يَحْمُومٍ﴾، في قَولِه تعالى: ﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ﴾، اختيارًا بالِغَ الدِّقَّةِ، مَقصودًا في مادَّتِه وصيغَتِه، يَنهَضُ بوَظيفَةٍ تَصويريَّةٍ تَهويليَّةٍ تُتِمُّ مَشهَدَ العَذابِ بأقوَى ما تَسمَحُ بِهِ اللُّغَةُ مِن إيحاءٍ وظِلالٍ، فالمادَّةُ (حمم) تَدورُ حَولَ السَّوادِ والاشتِعالِ، وهيَ في أصلِها توحي بشَيءٍ يَجمَعُ بَينَ شِدَّةِ الحَرارَةِ وظُلمَةِ اللَّونِ،

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 461، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 304.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 304.
(3) مجاهد، تفسير مجاهد: 1/ 643.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 82.

ولِذلِكَ قيلَ: (الحُمَمَة) هيَ القِطعَةُ المُحترِقَةُ السَّوداءُ، و(اليَحموم) هوَ الدُّخانُ الأسودُ الكَثيفُ المُلازِمُ لِلنّارِ المُتَأجِّجَةِ، فهوَ صورَةٌ مِن صوَرِ النّارِ، لا ضَوؤُها، بَل دُخانُها الخانِقُ.

وَهذا اللَّفظُ مِنَ الغَرابَةِ والشِّدَّةِ بحَيثُ لَم يَرِد في القُرآنِ إلّا في هذا المَوضِعِ، ممّا يُضفي عَلَيهِ طابِعًا مِنَ الفَرادَةِ والتَّوَحُّشِ اللَّفظيِّ، وهو ما يَزيدُهُ رَهبَةً، ويَجعَلُ السّامِعَ يَتَوَقَّفُ عِندَهُ مَأخوذًا بغَرابَتِهِ، قَبلَ أن يُصدَمَ بدَلالَتِهِ، وهو مِن أساليبِ القُرآنِ في إشراكِ السَّمعِ والبَصَرِ والخَيالِ في تَلَقّي المَعنى.

نكتةُ التَّعبير بصيغة يفعول:

اختيرَتْ صيغَة (يَفعول)؛ لِما فيها مِنَ المُبالَغَةِ والثِّقَلِ، فاليَحمومُ لَيسَ مُجرَّدَ دُخانٍ، بَل دُخانٌ كَثيفٌ، مُظلِمٌ، دائِمٌ، فالصّيغَةُ تُعطي الكَلِمَةَ وزنًا صَوتيًّا يَتَناسَبُ مَعَ المَعنى النَّفسيِّ، فـ﴿يَحْمُومٍ﴾ تُثقِلُ السَّمعَ، كَما يُثقِلُ الدُّخانُ النَّفسَ، فتَزدادُ الجُملَةُ وطأةً على الحِسِّ، ويَتَعَمَّقُ بها الإيحاءُ بالخَنقِ والانغِلاقِ؛ إذ لا هَواءَ، ولا نورَ، بَل ظِلٌّ مَصنوعٌ مِن دُخانٍ قاتِمٍ.

الصَّوت القرآنيُّ يُحاكي النَّفس، ويُحرِّك الحسَّ مع غياب المعنى عن الحدس

بلاغة التَّهكُّم في وصف الظِّلِّ باليحموم:

في قَولِهِ تعالى: ﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ﴾، تَتَجلّى بَلاغَةُ التَّهَكُّمِ في أبلَغِ صوَرِها؛ إذ يُذكَرُ الظِّلُّ الَّذي هوَ في أصلِ مَعناهُ مَوضِعُ الرّاحَةِ والبَردِ والسَّكينَةِ في سياقِ العَذابِ، ثُمَّ يوصَفُ بأنَّهُ ﴿مِّن يَحْمُومٍ﴾، أي: مِن دُخانٍ أسوَدَ كَثيفٍ خانِقٍ، فيَجتَمِعُ في التَّركيبِ بَينَ لَفظٍ يوحي بالرّاحَةِ، ووَصفٍ يَنقُضُ تِلكَ الرّاحَةَ مِن أصلِها، وهذا التَّناقُضُ الظّاهِريُّ يُحدِثُ تَهَكُّمًا لاذِعًا يُضاعِفُ مِن ألَمِ المَعنى ومَرارَتِهِ[1]، وهذا الأُسلوبُ التَّهَكُّميُّ يُلقي في نَفسِ السّامِعِ خَيبَةَ الأمَلِ، وانسِدادَ الرَّجاءِ، ومُفارَقَةَ التَّوَقُّعِ، وكُلُّ ذلكَ يَصُبُّ في تَعميقِ الرَّهبَةِ.

المُفارَقَةُ التَّهَكُّميَّةُ في التَّعبيرِ القُرآنيِّ مَدخَلٌ إلى البِنيَةِ الشُّعوريَّةِ في آياتِ العَذابِ

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 304.

فائدةُ استعمال أسلوب النَّفي دون الإثبات:

قولُه تعالى: ﴿لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ﴾ "نَفْيٌ لِصفَتَي الظِّلِّ عَنهُ، يُريدُ: أنَّهُ ظِلٌّ، ولَكِن لا كَسائِرِ الظِّلالِ، سَمّاهُ ظِلًّا، ثُمَّ نَفى عَنهُ بَردَ الظِّلِّ وروحَهُ، ونَفعَهُ لِمَن يَأوي إلَيهِ مِن أذى الحَرِّ، وذلكَ كَرَمُهُ؛ ليَمحَقَ ما في مَدلولِ الظِّلِّ مِنَ الاستِرواحِ إلَيهِ، والمَعنى أنَّهُ ظِلٌّ حارٌّ ضارٌّ إلّا أنَّ لِلنَّفيِ في نَحوِ هذا شَأنًا لَيسَ لِلإثباتِ، وفيهِ تَهَكُّمٌ بأصحابِ المَشأمَةِ، وأنَّهُم لا يَستَأهِلونَ الظِّلَّ البارِدَ الكَريمَ الَّذي هوَ لِأضدادِهِم في الجَنَّةِ"[1]، وفي النَّفي توكيدٌ لمعنى اليحموم المبيِّن لنوعِ الظِّلِّ.

توكيدُ التَّهكُّمِ بأصحابِ الشِّمال وتعيين العذاب بمزيد البيان

فائدةُ العدولِ عن إثباتِ الحرِّ والمضرَّة إلى نفي البارد والكريم:

في قَولِهِ تعالى: ﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ۝٤٣ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ﴾، تَتَجلّى بَراعَةُ الجَمعِ بَينَ نَفيِ البارِدِ ونَفيِ الكَريمِ لِتصويرِ عَذابٍ مُزدَوِجٍ يَجمَعُ بَينَ الإيلامِ الحِسّيِّ والإذلالِ المَعنويِّ، فجاءَ النَّفيُ الأوَّلُ: ﴿لَّا بَارِدٍ﴾؛ ليَدُلَّ على انتِفاءِ ما يُرجى مِنَ الظِّلِّ في ذاتِهِ، وهو اللُّطفُ الحِسّيُّ، أي: التَّبريدُ والرّاحَةُ الجَسَديَّةُ، فيَكونَ ذلكَ استِكمالًا لِمَشهَدِ الحَرِّ والاختِناقِ، وامتِدادًا طَبيعيًّا لِما سَبَقَهُ مِن وصفِ السَّمومِ والحَميمِ، "فَوُصِفَ ظِلُّ اليَحمومِ بوَصفٍ خاصٍّ، وهوَ انتِفاءُ البُرودَةِ عَنهُ، واتُّبِعَ بوَصفٍ عامٍّ، وهوَ انتِفاءُ كَرامَةِ الظِّلالِ عَنهُ، ففي الصِّفَةِ بنَفيِ مَحاسِنِ الظِّلالِ تَذكيرٌ لِلسّامِعينَ بما حُرِمَ مِنهُ أصحابُ الشِّمالِ عَسى أن يَحذَروا أسبابَ الوُقوعِ في الحِرمانِ، ولإفادَةِ هذا التَّذكيرِ عُدِلَ عَن وصفِ الظِّلِّ بالحَرارَةِ والمَضَرَّةِ إلى وصفِهِ بنَفيِ البَردِ ونَفيِ الكَرمِ"[2].

تذكيرُ السّامعين بالحرمانِ من أسبابِ الكرامة للحذر من الوقوع في الحرمان

بلاغة فنِّ التَّتميم في نفي الكرامة:

خُتِم قَوله تعالى: ﴿لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ﴾، بقوله: ﴿وَلَا كَرِيمٍ﴾

ظِلٌّ لا يُسكَنُ إلَيهِ؛ إذ يَتَلاشَى لُطفُ الجَسَدِ وكَرامَةُ النَّفسِ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 462.

(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 305.

على جِهَةِ التَّتميمِ البَلاغيِّ، وهو أُسلوبٌ يُقصَدُ بهِ استيفاءُ المَعنى مِن جَميعِ جِهاتِهِ، لا بإضافَةِ مَضمونٍ جَديدٍ مُستَقِلٍّ، بَل بإتمامِ الدَّلالَةِ وتَوكيدِها مِن جِهَةٍ أُخرى تَرفَعُ التَّوَهُّمَ، وتُعَمِّقُ الأثَرَ.

فَقَولُه: ﴿وَلَا كَرِيمٍ﴾ تَتميمٌ لِنَفي صِفَةِ المَديحِ فيهِ، وتَمحيقٌ لِما يَتَوَهَّمُ في الظِّلِّ مِنَ الاسترواحِ إلَيهِ عِندَ شِدَّةِ الحَرِّ، أو نَفي لِكَرامَةِ مَن يَستَروحُ إلَيهِ، ونُسِبَ إلَيهِ مَجازًا، والمُرادُ هُم، أي: يَستَظِلّونَ إلَيهِ، وهُم مُهانونَ، وقَد يُحتَمَلُ المَجلِسُ الرَّديءُ لِنيلِ الكَرامَةِ[1]، فأتى نَفي الكَرامَةِ لِمَنعِ تَوَهُّمِ هذا المَعنى، وهو نَفيٌ مَعنويٌّ راقٍ، لا يَرِدُ في الظّاهِرِ على الخاطِرِ عِندَ وصفِ الظِّلالِ، لَكِنَّهُ يَرِدُ في ميزانِ الذَّوقِ القُرآنيِّ؛ لأنَّ (الكَريم) عِندَ العَرَبِ يَشمَلُ مَعنى الرّاحَةِ، واللُّطفِ، والبَهاءِ، والقَبولِ النَّفسيِّ، فهو كُلُّ ما تُقبِلُ عَلَيهِ النَّفسُ، وتَطمَئِنُّ إلَيهِ، فجاءَ هذا اللَّفظُ مُتَمِّمًا لِوَصفِ العَذابِ؛ لِيُقالَ: إنَّ هذا الظِّلَّ، فوقَ كَونِهِ لا يُريحُ الجَسَدَ، فهوَ لا يُكرِمُ النَّفسَ، بَل يُهينُها، ويُثقِلُها، ويَفضَحُها.

وَهذا النَّفيُ في مَقامِ التَّتميمِ لا يُفهَمُ على أنَّهُ مُجرَّدُ إضافَةٍ، بَل هوَ تَوكيدٌ بالنَّفيِ المَعنويِّ بَعدَ النَّفيِ الحِسّيِّ، وهو مِمّا يُحدِثُ في نَفسِ السّامِعِ انطِباعًا بكَمالِ الإحاطَةِ بالمَهانَةِ، وأنَّ هذا الظِّلَّ قد خَلا مِن كُلِّ خَصيصَةٍ يُرجى مِنها لُطفٌ أو نَجاةٌ، فلا هوَ بَردٌ لِلجَسَدِ، ولا هوَ كَرامَةٌ لِلنَّفسِ، فهوَ ظِلٌّ لا يُسكَنُ إلَيهِ، ولا يُطمأنُّ بهِ، بَل يُستَوحَشُ مِنهُ، ويُستَثقَلُ.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الحميم والحارُّ:

في قَولِهِ تعالى: ﴿فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ﴾، اختارَ القُرآنُ لَفظَ (الحَميم) دونَ (الحارّ)؛ تَنبيهًا على شِدَّةِ العَذابِ، لا مِن حَيثُ الحَرارَةُ وحدَها، بَل مِن حَيثُ طَبيعَةُ أثَرِها في الجَسَدِ والنَّفسِ، فلَفظَةُ (الحارّ)، وإن دَلَّت على ارتِفاعِ الحَرارَةِ، تَبقى في إطارٍ وصفيٍّ عامٍّ، قد يُقالُ في الشَّيءِ القابِلِ لِلتَّحَمُّلِ، أو في المُناخِ، أو في الطَّعامِ والشَّرابِ، ولا تَدُلُّ بالضَّرورَةِ على الإهلاكِ أو الإذابَةِ.

أمّا (الحَميم)؛ فهوَ الماءُ الحارُّ الَّذي بَلَغَ أقصى دَرَجاتِ الغَليانِ، و(الحُمَّة) وهيَ العَينُ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 85.

الحارَّةُ[1] الماء حَتّى صارَ مِن شِدَّةِ حَرارَتِهِ مُهلِكًا، يُقطِّعُ الأحشاءَ، ويُذيبُ الجِلدَ، ويُشوِّهُ الخِلقَةَ، وقَد صوِّرَ في مَواضِعَ مِنَ القُرآنِ بأنَّهُ يُصَبُّ على الرُّؤوسِ، ويُقَطِّعُ الأمعاءَ، ويَغلي في البُطونِ، فهوَ عَذابٌ سائِلٌ مَحضٌ، لا يُستَساغُ، ولا يُروى بهِ الظَّمأُ، بَل يَزيدُ الظَّمأ اشتِعالًا، والعَطَشَ احتِراقًا.

فالفَرقُ بَينَ (الحارّ) و(الحَميم)، هوَ الفَرقُ بَينَ حَرارَةٍ تُحتَمَلُ، وحَرارَةٍ تُستَعمَلُ لِلعَذابِ، بَينَ صِفَةٍ تُقالُ في الدُّنيا، ولَفظٍ اختَصَّهُ القُرآنُ بوَصفِ جَحيمِ الآخِرَةِ، لِما فيهِ مِنَ الرَّهبَةِ والشَّناعَةِ، وقوَّةِ التَّأثيرِ في الحِسِّ والخَيالِ، ومِن هُنا كانَ اختيارُ (الحَميم) في مَوضِعِ أصحابِ الشِّمالِ أبلَغَ في التَّهويلِ، وأدقَّ في الإيحاءِ بعَذابٍ يَتَغَلغَلُ، لا يُحتَمَلُ، ولا يُنقِذُ مِنهُ ظِلٌّ ولا نَسيمٌ.

(1) المُطرّزيّ، المُغرب، ص: 130.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد التاسع والخمسون،
سورة الرَّحمن من الآية 31 إلى سورة الحدِيد الآية 13
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد التاسع والخمسون، سورة الرَّحمن من الآية 31 إلى سورة الحدِيد الآية 13
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 59 ، 802 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-648-68-0
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 59 : المجلد التاسع والخمسون، سورة الرَّحمن من الآية 31 إلى سورة الحدِيد الآية 13.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-648-68-0
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-7377148 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"